غادة بابل

La Belle de Babylone.

—٦—

نام اهل الحي واصحاب القافلة نوما هنيئا . اما شمشو فلم يغمض جفنا على جفن بل اخذ يسامر الكواكب والبدر المنير في سماء صافية الاديم وكان يرى في البدر وجه حبيبته حتراء وفي النجوم عينيها اللامعتين ويتخيل في تمايل السنابل عند مر النسيم البليل قدها المياس تيها ودلالا . واذا سمع خرير الماء في الجداول والترع يصغي اليه كانه انشودة حب سرية .

وبين فينة وفينة يذكر بنت خاله شمير ام بخير ويعطف عليها ويأسف لبواعث الاسى التي تختلج في صدرها بسبب حبها له وهو تحت سلطان غرام غيرها فلا قدرة له على كبح جماح الهوى وتحكيمه فيه ولا سبيل له لارضائها . وبينما كانت يد الهواجس تداعب مخيلته وانامل الشوق تلاعب شعوره اذا بعض الرعاة الذين كانوا يتناوبون يصيحون بالويل والثبور ويستغيثون لدفع شر اسد انسل بين القطعان يريد افتراس الغنم فهجموا عليه بفؤوسهم تعاونهم الكلاب الجريئة الكبيرة الجثث فانقضت على الاسد انقضاضها على فرائس الصيد . وبعد عراك هائل تمكن القوم من طرد الاسد وقد خذل اي خذل لانه لم ياخذ فريسته .

وفي الصباح استأنفت القافلة السير وكان اصحابها يمرون على المزارع فمنها ما كان يزرعها الملاكون مباشرة وقد اقاموا عليها الوكلاء واستأجروا لها الفلاحين من الاحرار اوالعبيد بعقود مسجلة ، وبين الفلاحين من تقضي عليه شروط عقده ان يخدم خدمة العبيد ويكون ملكا لمالك الارض حتى ينتهي الاجل المضروب ومن الاراضي ما كان مؤجرا او « ملتزما » ويدفع الفلاحون الى مالكيها حصة مقطوعة او نسبية من نتاج الارض .

كان بلاتو دعي بيروس يسير الى جانب شمشو في الطريق ويتحادثان في مواضيع مختلفة فتناولا البحث في ملكية الاراضي في بابل وقوانينها فقال شمشو: الارض ملك الالهة في الاصل يولونها لمن شاؤوا من الملوك والسلاطين

وهؤلاء وهبوا منها ولا يزالون يهبون قطعا لمن شاؤوا من المخلصين لهم والمقربين منهم حتى غـدا معظم الاراضي بيد الشرفاء ورجال الدولة والجيش ومختلف طبقات الناس من العامـة . لان من نال هبة من الملك من تلك الاراضي له ان يتصرف فيها حسبما شاء واراد من ايجار وبيع واستغلال وتقسيم بين ورثته او بين اصدقائه بعد ان يدفع ضريبة الدولة ورسوم الهيكل المقررة مهما كانت ثقيلة الوطأة وليس لاي كان ان يتدخل في شؤون هذا المالك او يضيق حريته.

وملكية الاراضي مثبتة في رقم من طين مدونة فيها تقسيم كل ارض وحدودها واسم صاحبها وما فيها من المنخفضات والمرتفعات والترع والجداول ومساحتها واذا وجد بعض المبهمات تخطط صورة او خريطة مختصرة تلحق بالرقيم زيادة للايضاح .

وعلى هذا المسح العام للاراضي « الكادسترو » تجبى الضرائب والرسوم وتفرض على قاعـدة ثابتة . لا يحتمل وقوع اجحاف كبير بالمزارعين . ويرجع من حين الى آخر الى مسح الاراضي التي يشك في صحة مساحتها .

بلاتو ـــ اني لم اتعاط الزراعة ولا وقوف لي على هذه المعاملات ولكن لا تظن ان الضرائب و الرسوم التي تجبى على مساحة الاراضي لا تكون عادلة لان بعض الاراضي مخصبة كل الخصب وبعضها دون ذلك وبعضها قليلة الانتاج .

شمشو ـــ الحق معك . إلّا ان الشرائع المرعية قد نظرت في هذا الامر وجعلت تقدير حاصل كل وحدة قياسية يختلف عن حاصل وحدة قياسية اخرى نظرا الى جودة الارض وموقعها (1) .

وهكذا كانت تقطع القافلة مرحلة بعد مرحلة بأطيب الاحاديث و افكه النوادر والخوض في مواضيع شتى . وبلغت في اليوم الخامس مدينة اوبي (٢) الشهيرة

(1) G. Maspéro . His. Anc. des Peuples de l' Orient classique. Les Origines. Egypte et Chaldée. P 761.

٢) مدينة قديمة في شمالي بابل في بلاد أكد تكاد تكون على مقربة من تخوم بلاداشور وكان لها شهرة بعيدة منـذ القرن الثاني عشر قبـل الميلاد ويروى في تاريخ سنكرونس Synchronous, ان تغلتفلا سر الاول دوخها (١١٠٠ ق م) . وقد اتخذها سنحاريب

بتجارتها الواقعة عند مصب نهر فسقس وعلى ضفة دجلة الغربية . فرغب رجال القافلة في ان يقضوا يوما في تلك المدينة للتفرج وقضاء بعض الحاجات فوافقهم رئيس القافلة .

❀❀❀

تركت القافلة اوبي وسارت في طريقها الى بلاد اشور وبعد ان قطعت ثماني ساعات انزلت الاحمال والاثقال للاستراحة والمبيت بموجب العادة .

وهنا حدث امر ذو بال وهو ان « بلاتو » دعي بيروس اصبح جثة هامدة وفي جسمه آثار السم بادية والى جانبه كلبه ميت ايضا وفيه مثل تلك الامارات وبعد البحث عن السبب تحقق شمشو انهما اكلا من الزاد الذي بعثت به اليه شميرام ولكي يقف على ما في هذا الزاد من القوة السامة القى منه شيئا لكلب آخر فمات لساعته . فلم يبق لديه شك في الامر فطرح ذلك الزاد في دجلة ولم يحتفظ إلا بشيء زهيد منه شهادة على مافيه حتى اذا ما رجع الى بابل يبحث عن الجاني .

وكان هذا الامر الخطير من بواعث القلق والاضطراب لشمشو واخذ يفكر في اليد الاثيمة التي تجرأت على دس هذه الدسيسة وهذه الفعلة الشنعاء التي كادت تودي بحياته لو لم يضح على هيكلها « بلاتو » الذي دفعه جشعه الى حياض الموت وجذبته شراهته الى ذلك المورد الرنق .

فبقي شمشو العوبة بيد عوامل كثيرة . فكان تارة يتهم شميرام وينهب الى انها التجأت الى هذه الدسيسة انتقاما منه لاعراضه عن زواجها وحبه حتراً .

مكلاً لشحن السفن في حملته على شعوب خليج فارس والعيلاميين . وقد ذكرها زينفون : اناباس (٢، ٤: عدد ٢٥) ويظهر ان في عهد استرابون لم تكن اكبر من قرية (٢، ٤، ٢٦؛ ١٦، ١، ٩) ويرتئي واليس بدج ان خرابها ربما حدث بسبب تغيير دجلة مجراه وانصرافه عنها (راجع Wallis Budge. - By Nile and Tigris. II . P. 118 ويرتئي المستشرق هرتسفلد (مجلة لغة العرب ١: ٣٠١ — ٣٠٢) ان اوبى هي قرية باحشا التي ذكرها ياقوت في معجمه وهي واقعة بين اوانا والحظيرة وهي قرية من اعمال دجيل.

ان اوبى هي المدينة العظيمة البابلية الوحيدة التي كانت على دجلة اما سائر مدنهم فكانت على الفرات .

وطورا يطرد هذه الاوهام والوساوس والاباطيل ويبرىء ساحتها من هذا المنكر الفظيع لما يعهده فيها من الاخلاق الحميدة والحب الخالص له ... ولكن في الامر سرا ... فمن اتى اذا هذا الامر المنكر ؟ فلم يهتك البحث ستار هذا السر الغامض ولا ازاح التنقيب الابهام الذي يحف بهذا الحادث المهيب.

وكان يرجع حينا الى ذكر « بلاتو » الذي بعثه معه بيروس المخلص على ما يعتقده وكيف مات بلا ذنب ولا حرج وهلك ضحية تلك المؤامرة السرية فيتخيل كانه امام الكاهن الكلداني يؤنبه على موت البار ... وهو لا يحير جوابا ولا يتمكن من تمحل الاعذار .

وكان في الطريق كله مشتت الافكار قلق البال. ولا تفارق اشباح ذلك الحادث مخيلته. فكان يكرر اقوالا متقطعة .. شميرام .. السم في الزاد ... بلاتو البار ... موت ظلم وعدوان .. بيروس المحسن ... غموض في ابهام ... في اسرار تكتنفها الظلمات ولم يجد تسلية إلا بذكرى حترآ ... حترآء الحبيبة .

بعد اربعة عشر يوما من مغادرة بابل وصلت القافلة الى نينوى.

❀❀❀

رأينا شميرام قد عدلت عن الاستسلام لسلطان الهوى ورأت في الغرام ذلا تأنف النفس الابية من الرضوخ لقضائه فحكمت العقل على القلب واستولت على الشعور بسمو المدارك. فوجدت راحة وهناء وسلاما في نفسها واخذت تطالع الرقم وتلتقط منها شوارد الحكمة وآيات الرشد.

وكان لها ولع خاص برقيم مدونة فيه حكم السلوك فكثيرا ما كانت تردد في فكرها ماتعلمته منها فتقول : لا تغتب. تكلم بما ينزهك. لا تقذع. تكلم باللطف. من يغتب ويقذع يزره شمش (١) على رأسه — لا تتبجح ، احفظ شفتيك — ان غضبت لا ترفع صوتك — التكلم في ساعة الغضب يورث الندام — وبالسكوت دار حزنك — تعلم الحكمة من الرقم (الالواح) (٢) — مخافة الاله تولي نعمة —

١) شمش — آله العدل عند البابليين وهو رأس التالوث الثاني .

٢) الرقم هي الالواح الحجرية المكتوبة والتي كانت بمقام الكتب في هذا اليوم ومعنى هذا المثل تعلم الحكمة من مطالعة الكتب .

كتابخانه ملي

ـ الصلاة تجلب غفران الخطيئة ـ اطعم الناس واشربهم خمرا . ابحث عن الحق واجتنب الباطل ـ لاتتكلم شرا عن صديقك ورفيقك ـ ان وعدت انجز ما وعدت ـ لاتتكلم كثيرا بل احسن التكلم ـ من يخف الالهة لايصرخ عبثا (١)

وكانت تنشد في بعض الاوقات اناشيد دينية مؤثرة تدور حول ندامة الانسان على خطيئته وطلب المغفرة عما يترتب عليه من القصاص والعقاب من جرائها . وانشاء تلك الاناشيد بليغ وفيه معان شعرية عالية تنفذ الى القلوب قبل ولوجها الآذان وتحرك العواطف بلا استئذان . وكثيرا ما كانت تنزل الحديقة في الليل وتترنم بتلك الاناشيد .

وكانت نجيتها نتو تراقب حركاتها وسكناتها عن كثب وتبلغ بيروس الكاهن كل ما تقوله وتفعله سيدتها . وقالت له يوما اني آنس في شميرام اعراضا عن حب شمشو فلا تذكره ذكر الحبيبة لحبيبها بل ذكر بنت الخال لابن عمتها وكاني بادعيتك قد استجابتها الالهة . وهي تنزل كل ليلة الى الحديقة بعد العشاء وتتمشى فيها حتى تبلغ آخرها فكان هذا الخبر مدعاة لتدبير حيلة اخرى حاول بها بيروس السيطرة على افكار « غادة بابل » .

❀❀❀

خيم الظلام على ربوع بابل فتردى بيروس ثياب الالاهة اشتر بعد ان انتزعها من تمثالها (٢) وتوجه توا الى حديقة شميرام وتسلق نخلة وبقى كامنا هناك وبعد هنيئة سمع صوت شميرام الرخيم وهي تنشد انشودة اشتر الاهة الحب والتناسل . واخذ يتقرب صوتها شيئا فشيئا حتى بدا له خيالها من بعيد وهي تمشي الهوينا في مخرف تلك الجنينة النضرة فتقف حينا عند الازاهير تقتطف منها ما طابت رائحته وعبق شذاه وطورا تستأنف السير متبخترة ولما صارت على مقربة منه خاطبها بصوت سحري ذي جلال قائلا لها :

ياعذراء بابل ؟ يابنت الالهة ! قفي في محلك متهيبة لان الروح الذي يخاطبك

١) هذه الامثال مستلة من مجموعة امثال بابلية راجع Jastrow.- The Civilisation of Babylonia and Assyria . P 464

٢) كان البابليون يلبسون تماثيل الالهة ثيابا فاخرة وحلى ثمينة .

روح الالاهة اشتر انبئك ان دموع ندامتك صعدت الي كعطر بخور ذكي وارضتني فوجدت عندي نعمة وقضت الالهة في ندوتها ان تحيي سعيدة وسجل «نبو»(١) في لوح الاقدار سعدك . فنجيت من آلام الغرام وهـا ان ذلك القاسي الذي لم يمالئك في حبك لن يموت عاجلا . فما لك إلّا ان تقرني حياتك بحياة كاهن فيعقد لك تاج السعد . »

فجمد الدم في عروق شميرام وهلع قلبها رعبا ثم خـارت قواها فسقطت مغشيا عليها بعد ان صرخت صوتا سمعه من كان في دارها . ففر بيروس هاربا . وجاء اهلها وخدمهم وعبيدهم فحملوها الى غرفة نومها وعالجوا انعاش قواها الخائرة ولما ثاب اليها رشدها قصت عليهم ما رأته وسمعته وما اوحاه اليها روح اشتر من موت شمشو .

إلّا ان ذلك المشهد وذلك المسمع وذلك النبأ نبأ موت شمشو كل هذا لم يؤثر في اعتقادها بل كانت تحملها على خز عبلات وعلى دسيسة اثيمة يكشف المستقبل مخبأها ويظهر بواطن اسرارها حتى ان امها اخـذت تخاف عليها من غضب الالهة التي لا تكترث لهم وبقواتهم وقدرتهم.

بوسف غنيمة

﴿ الشيخ علي سالم الصباح ﴾

في اليوم الاول من شهر ك ٢ من هذه السنة ١٩٢٨ توفي الشيخ علي سالم الصباح اثر ما اصـابه من الجروح العظيمة في وقعة الاخوان . فشمل الحزن الكويتيين جميعهم واتشحت المدينة بالحـداد وتعطلت الاعمال واقفلت الاسواق واقيمت للمتوفى مناحات في الطرق وفي الدور .

وكان المرحوم ثاني انجال الشيخ سالم الصباح وابن عم حاكمها الان وكان في مقتبل العمر ومن الشبان المتنورين واشتهر بالشهامة والاقدام والبسالة والجرأة وكان في الحادثة التي جرح فيهـا يقود حملة اركبها ١٧ سيارة فقابل الهاجمين بقلب قد من الجلمود المانع وقاتلهم قتال الابطال المستميتين حتى سقط قبـل ان تلحق به القوة التي انضمت اليه بعد جرحه الذي قضى عليه بعد ان عاش خمسة ايام يقاسي فيها اشد الآلام .

٢) ارجع الى القسم الرابع من هذه الرواية تجـد فيه وصف ندوة الالهة ووظيفة الاله نبو فيها .